ASJP Algerian Scientific Journal Platform
مجلة دفاتر مخبر الشعرية الجزائرية
ISSN : 1112-9727 EISSN : 2676-1661
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/459

المجلد: 10، العدد: 01 (2025) ص: 243 - 254

قراءة أنثروبولوجية للصيغ الثقافية الشعبية في الرواية الجزائرية الحديثة (رواية الجازية والدروايش أنموذجا)

An Anthropological Reading of Popular Cultural Forms in the Modern Algerian Novel (The Jazia and the Dervishes as an Example)

د. حسينة دلوم*

المدرسة العليا للأساتذة الفريق المجاهد أحمد قايد صالح-بوسعادة (الجزائر)

البريد الالكتروني:
deloum.hassina@ens-bousaada.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2025/04/22
تاريخ القبول:
2025/05/26
تاريخ النشر:
2025/06/02

الكلمات المفتاحية:
- ✓ **الرواية.**
- ✓ **الأنثروبولوجيا.**
- ✓ **الثقافة الشعبية.**

الملخص:

اشتملت الرواية الجزائرية منذ نشأتها على عنصر التراث الشعبي الذي شكلته تراكمات معرفية وفكرية عملت القريحة الشعبية الجمعية على نسجها وتأليفها وإذاعتها فأصبحت ثقافة شعبية.

من هذا المنطلق تقدم هذه الورقة البحثية قراءة أنثروبولجية لمختلف الصيغ الثقافية الشعبية التي حوتها رواية الجازية والدروايش للروائي الجزائري عبد الحميد بن هدوقة كنموذج سردي تتجسد فيه علاقة الرواية بالتراث والثقافة الشعبية.

Article info

Received
22/04/2025
Accepted
26/05/2025
Published
02/06/2025

Abstract :

Since its inception, the Algerian novel has included an element of popular heritage, which was shaped by the accumulation of knowledge and ideas that the collective popular imagination worked on weaving, composing and broadcasting, which became popular culture.

This paper presents an anthropological reading of the various popular cultural formulas contained in the novel Al-Jazia and Al-Darwish by the Algerian novelist Abdelhamid Ben

* د. حسينة دلوم

Hedouga as a narrative model that embodies the relationship of the novel with heritage and popular culture.

Keywords:
- ✓ *The Novel.*
- ✓ *The Anthropology.*
- ✓ *The Popular culture.*

1. مقدمة:

حظيت الرواية الجزائرية الحديثة بأهمية كبرى كنموذج سردي سمته الأبرز الصيرورة والتحول الدائم والانفتاح على التعددية الفكرية ومختلف التنويعات الكتابية، لانطوائها على نسيج لغوي وفكري يضم توليفات نوعية من الثيمات كالثورة المظفرة، وقضايا المرأة، والإرهاب، وأشكال متنوعة من الثقافة الشعبية(التراث)، هذه الأخيرة اشتقت من صميم المنجز الحضاري للجزائريين ما جعل الروائيين يصوغونها ببراعة أدبية لا تبتعد عن الواقع، أين تمتزج الذاكرة الجمعية بمخيلة الروائي الإبداعية لتحرره من الموضوع نحو عوالم الانتماء التراثي والحضاري، فيضعها في ميزان الفكر والنقد والمساءلة للمساهمة في طرح وفكاك المعضلات السياسية والثقافية والاجتماعية التي طبعت عصر العولمة والرقمنة والانفتاح على الآخر.

ولما كانت الرواية معنية بهذا الأمر توسلنا بهذا البحث استنطاق أحد النصوص الروائية كنموذج لرصد مختلف الصيغ الثقافية الشعبية الموظفة فيه لتبيان مدى وعي الكاتب بها ومساهمته في نشر التراث والتعريف به والحفاظ عليه لما يستقبل من أجيال، هو رواية "الجازية والدراويش" لعبد الحميد بن هدوقة، متوخين في ذلك منهجية البحث الأنثروبولوجي _ وإن كانت نظرية على الورق وليست ميدانية_ لفضلها في استقلالية مادة التراث وترقيته إلى مستوى علمي يحفظ له قيمته كونها تحتكم إلى جمع المعطيات ووصفها وتحليلها ومقارنتها بهدف الوصول إلى تصورات نظرية تسائل مختلف الصيغ الثقافية (التراثية) الكامنة من حيث أصولها ووظيفتها ومدى تعبيرها عن القيم والمعتقدات السائدة.

تراودنا في ذلك أسئلة كثيرة عن ماهية الثقافة الشعبية وعلاقتها بالأنثروبولوجيا والأدب الشعبي، وإلى أي مدى نجحت رواية الجازية والدراويش في تجسيد مختلف صيغ الثقافة الشعبية الجزائرية؟

2. الرواية في علاقتها بالأنثروبولوجيا والأدب الشعبي والثقافة والفن (تشابك المصطلحات):

1.2 الثقافة والثقافة الشعبية:

تعرف الثقافة عامة بأنها عنصر كثير التعدد شديد الاختلاف غزير التنوع، وعلى أساسها تتمايز المجتمعات وتختلف، وفيها ينعكس المستوى الحضاري للأمم، فهي نتاج فهم الإنسان لتراثه ودينه وتفاعله الاجتماعي والمادي عبر التاريخ، والثقافات مع بعضها البعض عرضة لتبادل للتأثيرات المتبادلة سلبا وإيجابا.(نجم. 2021، ص: 35). أما الثقافة الشعبية فهي تنتمي إلى عموم الشعب وهي نتاج ممارسته لسلطته حين يزاول مختلف الأنشطة الحياتية وينتج الأفكار ليحقق اكتفاءه المادي والنفسي بعيدا عن السلطة الرسمية، تتبلور مع مرور الزمن وتتناقلها الأجيال اعتمادا على الحفظ والمشافهة وفنون الأداء المتنوعة وتوريث الحرفة والمصنوعات المادية.

وبالتالي فإن التنوع الثقافي يعد سمة مشتركة للشعوب على اختلافها فهو تراث مشترك يجب حمايته لصالح الإنسانية لأنه يحوي ما

أبدعته على امتداد التاريخ من منتجات وأقوال وأفعال وحضارية لتسيير شؤون حياتها وتيسير أوضاعها المعيشية ومجابهة قوى الطبيعة مقدمة خبراتها للأجيال المقبلة لتحفظ بقاءها.

وبما أن العالم يشهد تقدما ثقافيا انفتحت فيه المعارف والعلوم على بعضها البعض ولم تعد الأبعاد الجغرافية حاجزا بين الدول بفعل وسائل التواصل الاجتماعي؛ اتخذ البحث في مسألة الهوية الثقافية طابعا جديا لتثبت الثقافة نفسها كممارسة تحررية تقف في وجه نظيرتها الأجنبية الساعية إلى الهيمنة فكان التوجه نحو دراسة المواضيع القومية والتاريخية والتقاليد الشعبية والأساطير والحكايات في محاولة لاستنهاض الهمم نحو التمسك بالقيم الجمالية والفكرية ذات المنشأ الشعبي، ومن هنا يبرز دور الثقافة الشعبية في بناء إنسان قادر على مواجهة تحديات العصر والتخطيط لمستقبله بمأمن من الثقافات الأخرى.

2.2 علاقة الثقافة الشعبية بالأنثروبولوجيا:

يمكن القول أن الثقافة الشعبية، التراث الشعبي، الفلكلور، الثقافة المادية واللامادية، الثقافة التقليدية، والمأثورات الشعبية كلها مصطلحات مترادفة أو على الأقل متشابهة إلى حد كبير تحصي عددا كبيرا من الأشكال التعبيرية المادية والمعنوية التي تبناها المجتمع كأسلوب عيش وهي قابلة للتطور، تساعد الإنسان على العيش كلما واجهته المشكلات، وهذه الأشكال تصنف ضمن العادات والتقاليد والطقوس والممارسات العقائدية وأنواع الفنون والحرف والأقوال الشعبية المتنوعة من أساطير وخرافات وأمثال وحكم وأشعار فالمادة غزيرة متنوعة وأصيلة عريقة والإبداع متقن ممتد امتداد التاريخ .

فالثقافة عموما والشعبية خصوصا موضوع خصيب جذب الدارس الأنثروبولوجي ليبحث في ماهيتها ونشأتها ومراحل نموها وأثرها في الوجدان الشعب "فكل أساليب الحياة وهموم الثقافة، جميعها أصبحت مواضيع عند الأنثربولوجي".(أوجيه؛ كولاين. 2008، ص: 6) ومن هذا المنبر نجدها تساعد في توضيح الجانب الثقافي والفني من حياة الشعوب.

وقد انبثقت الأنثربولوجيا كفرع عن العلوم الاجتماعية لتميزها بالبعد التطبيقي واعتماد الباحث الأنثروبولوجي على الدراسة الحقلية والملاحظة بالمشاركة (بيلتو. 2010، ص: 9)؛ التي يقوم بها محترفون تدربوا على العمل الميداني "داخل ثقافات من قاموا بدراستهم ومجتمعاتهم، وذلك ضمن برامج أكاديمية أشرفت على دراساتهم"(بن حرز الله. 2012، ص:85)، وهي قسمان: طبيعية(عضوية) تدرس المظهر البيولوجي للإنسان في تطوره الجسماني وأخرى اجتماعية وثقافية .

وبما أنها علم غربي مستحدث في صورته الحالية فقد سبق الباحثون الأجانب إلى البحث في طبيعتها وتبيين أهميتها، وقد وصلت إلى البلدان العربية ومن ضمنها الجزائر في قوالب نظرية جاهزة بحيث استفاد الباحثون العرب منها من ناحية النظرية والمنهج ونزع آخرون آخر نحو التاريخ الإسلامي يبحث عن جذور لها ورأوا أن نشوء هذا العلم مرجعه إلى الرحالة العرب القدامى الذين جابوا بقاع العالم ودرسوا شعوب البلدان التي مروا عليها في عاداتهم ولغاتهم وثقافتهم وللغرب سبق التسمية فقط (بن عيسى. 2015، ص68).

وتجدر الإشارة إلى أن نشأتها الأولى كانت لخدمة أهداف استعمارية وليست علمية بحتة، فقد قسمت إلى: الإثنولوجيا الوصفية (الإثنوغرافيا) التي ظهرت في نهاية القرن19وبداية القرن 20م مع توسع الحضارة الأوربية المتفوقة آنذاك كمنهج بحث ميداني لوصف عادات الشعوب البدائية المختلفة عنها في أسلوب حياتها ومجموع عاداتها وتقاليدها وقيمها وأدواتها وفنونها ومأثوراتها الشعبية من أجل تحييدها والقضاء عليها. أما الثيولوجيا (الأنثربولوجيا الثقافية أو الاجتماعية) فهي المادة المعرفية التي تجمع من تلك الدراسة الوصفية

وتدرس بالتحليل والمقارنة نواحي الحياة الاجتماعية والثقافية واللغة واللهجة المحلية والتأثيرات المتبادلة بين اللغة والثقافة عموما...بهدف الوصول إلى أحكام عامة حول النظم الاجتماعية من حيث أصولها وتطورها وتنوعها وكلا قسمي البحث يكمل أحدهما الآخر .

والأكيد هو أنها ولدت ضمن صيرورة تاريخية تم خلالها استبعاد القسم الأكبر من البشر من طرف قسم آخر وهي ابنة العنف (جوادات. 2015، ص:39). ثم تحولت فيما بعد إلى الاهتمام بكل الجماعات البشرية مهما كانت إثنيتها والاعتراف بتنوع الثقافات "تتبنى المواقف الإنسانية المناهضة للاستعمار، والتفرقة العنصرية، كما أنها تدعو للسلام وتأكيد إنسانية الإنسان في كل مكان" (فهيم. 1986، ص: 218). واستخدمت نتائج الدراسة لمساعدة الدول على النمو والتقدم وذلك بفضل العديد من الأنثروبولوجيين الذي رفضوا توظيف أبحاثهم التي استأمنتها عليهم الشعوب التي استضافتهم ومنحتهم ثقتها وسمحت لهم بالدراسة تبعها ظهور سلسلة من مواضيع البحث إذ "إن تنوع المواضيع التي تهم الأنثروبولوجيين قد بلغت حدا يوحي أننا نعاين تخصصا متصاعدا، الأمر الذي يترجم بتعدد التسميات: أنثربولوجيا الطفولة، والتربية، والحرب، والفن، والمرض، والمدنية، والمكان، والتطور، بل أيضا أنثروبوبوجيا الأنثروبولوجيا" (أوجيه؛ كولاين. 2008، ص: 26). ولما ازداد الوعي بأهمية الثقافة الشعبية كوثيقة حية في عالم متغير سمته التحول والتبدل باستمرار تزايدت إثر ذلك الدعوات لصونها لما يستقبل من أجيال لأنها تنمي لدى المجموعات الإنسانية ذات الانتماء الواحد شعورا بقوة ارتباط الحاضر بالماضي وتعزز الشعور بالاحترام تجاه الآخر المغاير مما يؤدي إلى الانفتاح والاحترام وتبادل الخبرات والمساهمة في التنمية لكل بني الإنسان على اختلاف أعراقهم ودينهم وجغرافيتهم، فكلهم محصورون على ظهر هذه البسيطة ولابد تحفظ لكل واحد مكانته الثقافية التي تعتبر قيمة مهما كان مختلفا.

أما محور الدراسة الأنثروبولوجية فهو الإنسان أينما حل وكيفما وجد من كافة جوانبه "أو في أبعاده الثلاثة المتكاملة: البعد الفيزيقي باعتبار الإنسان كائنا عضويا حيا، والبعد الاجتماعي باعتبار الإنسان كائنا عضويا حيا يعيش في مجتمع له ثقافته، والبعد الثقافي الذي يتمثل في العادات، والتقاليد، والقيم، وأنماط التفكير، ومظاهر الإبداع الفكري والأدبي والفني"(قريطم. 2010، ص: 7) .

3.2 الأنثروبولوجيا في الجزائر:

الجزائر بلد يقر له التاريخ بعراقته تداولت عليه حضارات عديدة خلفت له إرثا حضاريا وثقافيا وأدبيا لا يزال محفوظا في ذاكرة الشعب ووجدانه يتشرب منه بعض فنون الحياة وصناعة التاريخ والفخر بالأمجاد.

وقد اتخذ الحديث عن الأنثروبولوجيا والأدب الشعبي الذي يمثل جزءا هاما من الثقافة الشعبية الجزائرية بعد الاستقلال الجزائر مسارا خطرا بتصنيفهما كعلمين استعماريين، وترجع بنا الدراسات إلى ما قبل دخول الاستعمار الفرنسي سنة 1830م أين نظمت حملات استكشافية خفية للتحضير لإنجاح العملية الاستعمارية المستقبلية على يد سياح وقنصليين وصفوا عادات وأخلاقيات سكان شمال أفريقيا وتاريخهم الاجتماعي والأبعاد الجغرافية للمنطقة ومع دخول القوات الفرنسية إلى الجزائر تكفل العسكريون شخصيا بعملية البحث الميداني واتخذ طابعا منظما وعلنيا بهدف خدمة الحاجات والمشاريع والأغراض الاستعمارية "بحيث أنها تشكل الإطار المعرفي والعلمي لكثير من التوجيهات والإجراءات العلمية للإدارة الاستعمارية خلال سنوات عديدة"(ثقاية. 2016، ص: 46). فالأنثروبولوجيا تم تغييبها عمدا من دوائر التعليم- بعد الاستقلال- تكوينا وتدريسا وممارسة ميدانية للأسباب الاستعمارية آنفة الذكر، ومع نضال الباحثين وإصرارهم في الثمانينيات على إعطائها المكانة اللائقة أصبحت فرعا معرفيا في الجامعات تابعة لعلم الاجتماع وفيما بعد صارت تخصصا معرفيا مستقلا

أنشأت من أجله المراكز مثل: المعهد الوطني للتعليم العالي للثقافة الشعبية بتلمسان سنة 1984م ومركز البحث بوهران سنة 1990م ومركز بحث بالجزائر.

3 . الرواية الجزائرية في انفتاحها على التراث ونزوعها نحو الأدب شعبي:

1.3.الأدب الشعبي الجزائري:

الثقافة الشعبية كل يحوي، والأدب الشعبي جزء منها؛ يبني القيم ويربي النشء ويغني الذاكرة الجماعية ويحفظ استمرارها، وهو يتصف بالإبداعية ويكشف عن عوالم أنثربولوجية لغزارة مادته ولشدة التصاقه بحياة الشعب.

والأدب الشعبي يعرف بأنه نظير العامي المكتوب والرسمي، أو هو ذلك الأدب الذي أبدعه فرد معين غالبا ما يكون مجهول الهوية ثم تلقته الجماعة ليذوب في ذاتيتها وينسب إليها ويحمل على عاتقه آمالها وآلامها في قالب أدبي يثير الدهشة مشحون بالجميل والعجيب والمتخيل والواقعي في آن واحد، وهو يصدر في أشكال تعبيرية متنوعة شعرا ونثرا، تصور نمط حياة المجتمع وفكره ومعتقداته، أما أهم خصائصه فهي أنه يروى شفاها لا كتابة وينسب إلى الجماعة لا إلى الفرد، وميزته التلقائية في مقابل الصنعة، وهو يجد له ذيوعا جماهيريا فتتوارثه الأجيال، ولهجته هي الدارجة أو العامية أو المحلية المشتركة بين أفراد الشعب، كما أنه معرض للزيادة والنقصان ليعاد تشكيله كنص جديد مغاير للنص المرجعي عندما يضيف إليه الراوي من خياله وثقافته وبيئته .

وقد اهتم بدراسته المستعمر لأن مخزون الذاكرة الشعبية يتجلى من خلاله، فهو يحوي طرق التفكير والمبادئ المتبعة في الحياة وهو مدخل موضوعي لفهم ودراسة الشعب تمهيدا لاستعماره، لذلك ظل موضوع رفض وإقصاء من الدائرة التعليمية ولأسباب أخرى منها اعتباره موضوعا ساذجا ضعيفا لا يجدر الاهتمام به، كما يقول بذلك أحد الباحثين الجزائريين (سعيدي. 2015)، وما جعله أكثر عرضة للنعوت الخطرة والخالية من الوعي والمسؤولية التشكيك في معاداته للدين الإسلامي واللغة العربية والتخوف من تفكيك الوحدة الثقافية لأبناء الوطن الواحد على أساس إثني.

وفي إطار الواجب البحثي الموضوع على عاتق العلوم لإثبات الذات الجزائرية وتحديد معالم الهوية الوطنية كدعامة لازمة لبقاء الأمة واستمرارها ككيان ثقافي وصون خصوصيتها في ظل التطور الفكري والسياسي والثقافي والتكنولوجي السريع جدا تحت مسمى العولمة؛ وجد الأنثروبولوجيون الجزائريون في الأدب الشعبي مصدرا غنيا لمعرفة أوجه الشخصية الجزائرية وصورة أصيلة وأصلية للثقافة الشعبية فأقبلوا عليه جمعا ودراسة وتصنيفا وهذا ما حذا بالمؤسسات التعليمية أن تصنفه كظاهرة جديرة بالمتابعة والتحليل، وتهتم به كونه يمثل مظهرا من مظاهر الحياة والتاريخ الجمعي الذي يوطد العلاقة بين ماضي الشعب وحاضره ويستشرف رؤاه المستقبلية، ويمثل قيمة إنسانية لها دور فاعل في تماسك المجتمع وتلاحمه في عصر طغت عليه المادية والعوز الأخلاقي، وقد تم الاعتراف به سنة 1990م كاختصاص قائم بذاته وظهرت أسماء أدبية كبيرة تهتم به مثل: عبد المالك مرتاض، العربي دحو، عبد الحميد بورايو، وليلى روزلين قريش... تدريسا وتأليفا ودفاعا.

فالبحث في الثقافة الشعبية الجزائرية وخصوصا نصوص الأدب الشعبي هو بحث في الهوية والتاريخ والمجتمع الذي تشترك فيه جملة من العلوم كعلم الاجتماع واللسانيات والأنثروبولوجيا.

2.3. الرواية الجزائرية الحديثة تنفتح على التراث ودورها في نشره والحفاظ عليه:

الأنثروبولوجيا كمنهج تسعى إلى" تجميع المعرفة بالإنسان من كافة الجوانب، وذلك بهدف تقديم فهم متكامل ومترابط عن الإنسان وحياته ونتاجه الحضاري، في الماضي والحاضر، ومن ثم يكون لديها القدرة أيضا على استقراء أنماط الحياة المستقبلية" (فهيم. 1986، ص: 18). ومنذ نشأتها ركزت الدراسات الأنثروبولوجية اهتمامها بالفنون التقليدية والثقافات القديمة التي أنتجتها الشعوب كونها تعكس اهتمامات الناس وخبراتهم وقيمهم الحضارية وتوفر معلومات عن تاريخ شعوبهم واختلاف ثقافاتهم فهي تعبير صادق عن الواقع وإحياء له انطلاقا من كون الفن المتوارث ظاهرة ثقافية تجعل الأنثربولوجي يقوم بمهمة وتصنيف وتصوير ووصف وتسجيل مختلف الأنشطة التخيلية "وهذا يبدو واضحا في الفنون الحية والقصص والحكايات والأساطير ومن ذلك استطاع العلماء أن يعرفوا كيف يتعامل الناس مع البيئة والحياة من حولهم وربما أيضا علموا منها تاريخ الشعوب" (قريطم. 2010، ص72).

ولعل التراث الشعبي يمثل قمة الوعي الفني الشعبي فهو يخلد الماضي الإنساني ويقدمه لنا في شكل صور بديعة تظهر جمالية ما أبدعته قرائح وسواعد الشعوب أفرادا وجماعات، والروائيون بحسهم الإبداعي نظروا إلى هذه الجمالية التي لا تزال مستمرة حتى وقتنا الحاضر فأغرتهم حتى انطلقوا يستلهمون من معينه لترصيع أعمالهم الروائية بدرر من هذه الثقافة ما أضفى عليها حلاوة وطلاوة أهلتها لتكون معبرا صدوقا مفعما بالروح الإنسانية لافتة إليها عناية القراء والنقاد على حد سواء، فالرواية وعاء فكري ولغوي وثقافي يربط عالم المتخيل بعالم الواقع يضم الدين والمعتقدات ومختلف الممارسات الشعبية ليعطي صورة معبرة عن أحاسيس الشعب ومشاعره ونمط عيشه وطريقة تفكيره وأثر البيئة في تكوينه الجسمي والنفسي والعقائدي.

كما أن الاعتزاز بالانتماء القومي وتجسيد الهوية المحلية يستلزم التصدي للتيارات الثقافية المعاصرة التي تجتاح ثقافات الشعوب فتقضي عليها أو تشوهها أو تقزمها وتجردها من تاريخها وتراثها لتفرض عليها استهلاك ثقافة مهيمنة مستوردة وافدة "فلكل مجتمع هويته التي تمثل أساسا من أساساتها الوجودية، ولهذا السبب فقد أولت الجماعات البشرية أهمية كبرى لهوياتها الجمعية من خلال بناء سرديات تؤرخ لها سواء في التاريخ أم في المخيال "(العربي. 2021، ص: 111).

لقد انطلق الروائي الجزائري – بخبرته الذاتية– الملتصق وجدانيا بمجتمعه تفاعلا مع قضايا التراث المطروحة نحو التأكيد على أصالته وانتمائه القومي و وطنيته والتزامه الثابت تجاه كل ما يحقق سيادة وطنه وتميزه واستقلاليته وأصبح الالتزام تجاه القضايا الراهنة صورة من صور التحرر والنضال الأدبي. ذلك ما يبدو جليا من خلال توظيف الأشكال التراثية والصيغ الثقافية في الكثير من النصوص الروائية، ليعطي صورة عن المفاهيم والمعتقدات التي سادت مجتمعه ولا تزال حاضرة في راهنه بعين معاصرة إيمانا منه بأن فنه له دور في إكساب القارئ بصيرة في رؤيته وتحرير عقله وتغيير نظرته ليتحقق التفاعل المنشود بين القارئ والمبدع وتظهر براعة الروائي في الجمع بين الكتابة التي تمثل الواقع والانطباع الشخصي المستمد من البيئة الاجتماعية، وبذلك فإنه يسهم في إعادة الاعتبار لها وحمايتها من الاندثار وفق سرد يجمع بين الجمالي والتوثيقي في آن واحد.

من خلال ذلك نصل إلى نتيجة مفادها أن العمل الروائي كلما عبر عن الإنسانية كان ناجحا لأنه يصبح أكثر التحاما بالوعي

الشعبي معبرا عن فكرة الجماعة وفي تواصل دائم مع الأسلاف من خلال خبراتهم وهنا تبرز جمالية السرد المصرح بانتمائه إلى الثقافة الشعبية الجزائرية.

ولأن الرواية من النصوص السردية الحديثة الكبرى التي لها القدرة على إعطاء صورة عامة عن المجتمع والتحولات الثقافية الطارئة عليه وبالتالي تشكيل هويته والنفاذ إلى أعماق ذاكرته وشعوره ونفسيته، أصبحت الرواية الجزائرية مسكونة بالروح الشعبية للإنسان الجزائري الممتدة شخصيته في أصولها بموروث عريق ضارب في القدم أسستها خزانة من المرويات الشفهية والكتابية والصور الحياتية التي تمتزج فيها الأسطورة بالحقيقة والخيال بالواقع فجمعت بين المتخيل والحقيقي وبذلك حفظت لها معالمها المتميزة وسماتها الخاصة واضحة القسمات صامدة في وجه التشويه الطمس والذوبان في شخصيات الآخرين .

لكن انتقال الإبداعات الشعبية من جيل لآخر لا يحفظ لهذه النصوص صورتها الأصلية فقد يشوبها كثير من الضعف يهددها لتختفي أو تغير لملاءمة روح العصر والتسلح بخبرات الأسلاف لمواجهة مشكلات الحياة الطارئة؛ ما يجعلها ميدانا تتصارع فيه التيارات الباحثة عن التجديد تحت مسمى الحداثة والأخرى المتمسكة بالأصول وثالثة تحاول التوفيق بين الجانبين، من ضمنها الرواية التي تؤكد أن الجمع بين طرفي النقيض ممكن بحيث يكون العمل أصيلا يستند على ركائز تراثية ومعاصرا في الوقت عينه يقدر على التكيف وينفتح مع روح العصر دون التخلي عن القيم التراثية المشتركة.

4. الصيغ الثقافية التي اشتغلت عليها الرواية الجزائرية في نموذج (الجازية والدراويش):

في هذا الجزء من البحث نستفيد من الطريقة السيميائية في تأويل أسماء الشخصيات والأماكن والأحداث لنحاول تسليط الضوء على الدلالات الأنثروبولوجية لبعض الصيغ الثقافية التي وردت في رواية الجازية والدراويش لعبد الحميد بن هدوقة وأسست لعلاقة مع الموروث الشعبي بكل محمولاته، وذلك من خلال عرضها وتحليلها واستنباط الخصائص والمقومات الجمالية لمعرفة أوجه الارتباط في العلاقات الاجتماعية السائدة بين أفراده والتي تعكس التصورات الثقافية للأفراد والمجتمع، وما تحققه من طابع متميز في الرواية التي أبدت تجاوبا مع الحركة الكتابية التي ركزت اهتمامها على الثقافة الشعبية للفت النظر واستقطاب أكبر عدد ممكن من القراء باختلاف توجههم وشرائحهم لما تحمله من شحنات دلالية قوية.

1.4 العنوان:

رواية الجازية والدراويش محملة بأحداث جرت في دشرة نائية تقع في منطقة وعرة في قمة الجبل تسمى قرية الصفصاف لوجود تلك الأشجار بها "الصفصاف شامخ الرأس إلى السماء وهو على الهاوية!" (بن هدوقة. 1991، ص: 37)، حيث تعرف بطولها وعمق جذورها لترمز التسمية إلى الامتداد الثقافي الضارب في جذور التاريخ رغم خطر السقوط في بؤرة العولمة، سكانها متمسكون بعاداتهم وتقاليدهم حيث يشكل مسجد السبعة أولياء معلما دينيا بارزا تقام حوله الطقوس فيها ويعتقد سكان الدشرة بقدسيتهم خوارقهم ورضاهم وغضبهم وأنهم يحفظونها من كل سوء، تقطن بها بطلة الرواية الجازية ابنة السعيد الشهيد الأسطورة هو الآخر قتل بألف بندقية ولم يعرف له قبر بل دفن في حناجر الطيور، يسعى الكثيرون إلى طلب ودها والظفر بها كزوجة، وتشهد القرية أحداثا وهزات عديدة ومتتالية ثم تعود الحياة إلى مسارها الطبيعي وتبقى سمتها الأساسية محافظة على عاداتها ومعتقداتها وطقوسها .

وتشير الرواية منذ البداية إلى توجهها نحو التراث الشعبي حينما سماها الجازية والدراويش، فالجازية تعني في اللغة الثواب والعقاب (مجمع اللغة العربية. 1994، ص: 105)، والجزاء صفة إلهية، وفي المخيلة الشعبية هي الفتاة الحسناء ذات الجمال البديع والرأي الحصيف والذكاء الوقاد والكلمة المسموعة عند قومها، تربطها علاقة بمختلف شخصيات الرواية، أما الدراويش فهو مفرد درويش وهو الشخص الذي يظهر من نفسه الفقر والذل والمسكنة وهو عند الصوفية المتعبد الزاهد في الدنيا، أو المريد الذي يرتبط بطريقة معينة في أداء طقوس الرقص والغناء للوصول إلى درجة من النشوة الروحية، والربط بين الشخصيتين يوحي بكون الجازية كاملة الأوصاف المنزهة عن كل خطأ إله، والدراويش يسعون خلفها لنيل رضاها وتقديسها فهم عباد حيث "إذا سكتت هب الدراويش إلى إقامة زردة، استرضاء لها واستعطافا!" (بن هدوقة. 1991، ص: 24)، وطلاب الجازية في الرواية كثر تحمل كل واحدة من هذه الشخصيات أبعادا ودلالات تراثية.

2.4 أسماء الشخصيات:

• **الدراويش:** هم فئة تتمتع بسلطة دينية تحيطها هالة من القداسة يتحكمون بالطقوس المنظمة في مسجد القرية حيث أضرحة الأولياء السبعة يرمزون إلى شريحة من الشعب الجزائري التي لا تزال تتمسك بالعادات والتقاليد وتؤمن بالطرقية وبعض المعتقدات الشعبية المتوارثة التي تقدس الأولياء والأضرحة.

•**الطالب الأحمر**: "صاحب الحلم الأحمر والجازية!" (بن هدوقة. 1991، ص: 9)، أحد المعجبين بالجازية مثقف وجامعي قدم رفقة زملائه الجامعيين إلى القرية مهمته إقامة دراسات جيولوجية في جغرافيتها لمعرفة مدى قابليتها لإقامة مشروع قرية جديدة بدلا عن القديمة وحلمه الممنوع الذي سماه الكاتب بالأحمر" الأحمر هو اسمي الحقيقي، هو لوني، هو أحلامي" (بن هدوقة. 1991، ص: 62)، حلمه كان سببا في إعجاب الجازية به ومقتله في نهاية المطاف .

•**الطيب بن الأخضر الجبايلي**: رمز الطيبة والمنبت الأصيل يقبع في سجن القرية بتهمة قتل الطالب الأحمر، جريمة لم يرتكبها، يمثل فئة الشباب المثقفين المتمسكين بالأرض من أبناء الوطن الثابتون الراسخون فيه رغم الظروف الصعبة، هذا ما يدل عليه اسم والده الأخضر الجبايلي فالأخضر لون الوطن المزدهر أما الجبل فهو نسبة إلى القرية الجبلية .

•**الشامبيط**: المهاجرون "شعروا بالحسرة أن ينجوا هذا الشامبيط من الموت، أيام كان الموت يساوي رصاصة، وأن يعود إلى الشمبطة بعد انتهاء الحرب، وأن يصفوا له الجو إلى درجة لا يطمح إليه أمثاله!" (بن هدوقة. 1991، ص: 27). يرمز إلى فئة الإقطاعيين الانتهازيين الذين عاصروا الثورة واستغلوا فترة الاستقلال للحصول على الممتلكات وتحقيق مصالحهم الشخصية، يسعى خلف تزويج ابنه المغترب للدراسة في أميركا من الجازية، ليلقى حتفه في النهاية .

•**عايد بن السايح بو المحاين**: اسمه عايد مشتق من العودة إلى الوطن "شاب مثقف ذو عزم، عاش بالمهجر منذ الطفولة" (بن هدوقة. 1991، ص: 26)، والده السايح بو المحاين أي المغترب الذي يواجه الصعاب والأزمات في بلاد الغربة يمثل فئة المغتربين الذين هجروا الوطن قسرا لظروفه الصعبة بحثا عن العمل أو الدراسة ويحلمون بعودة أبنائهم إليه بعد الاستقلال .

•**حجيلة:** شقيقة الطيب نموذج الفتاة الجزائرية الممنوعة من التعبير رأيها الساعية لتغيير وضعها لتحصل حقوقها وحريتها أملا في حياة أفضل هي الجزائر في صورتها الثانية الواقعية تأتي بعد الجازية الحلم "الجازية حلم، والحلم لا يتحقق لكل الناس!" (بن هدوقة. 1991، ص: 196).

3.4 المثل الشعبي:

يمثل صيغة من صيغ الإبداع الثقافي للشعب الجزائري التي يزخر بالقيم الحضارية وتختزل خبرة الأجداد وحكمتهم وعبرهم، ليتناقلها الأحفاد عبر الأزمنة المتعاقبة، نجده حاضرا بقوة في متن الرواية، من أمثلة ذلك: "للإنسان جذور تربطه بالأرض كالشجرة. هل يمكن لشجرة أن تحيا بلا جذور"(بن هدوقة. 1991، ص: 14)، وهذا المثل بارز في الرواية وتكرر أكثر من مرة وفسره الكاتب على لسان شخصياته مثلما يقول الأخضر مخاطبا عايد "صحيح، الهاوية الحقيقية هي أفكار الناس، لأنها ليست لها عروق في الأرض" (بن هدوقة. 1991، ص: 48)، "لكل شيء، يا بني، عروق تربطه بالأرض، حيث لا عروق، لا شيء سوى الهاوية" (بن هدوقة. 1991، ص: 48)، وكان الكاتب يعني به الصراع القائم بين الأصالة والحداثة فالأصوات التي تريد الحداثة ينبهها الكاتب ويحذرها من أن تنسلخ عن أصولها وتراثها وقيمها الموروثة لأن تلك القطيعة تعني الفناء مثل الشجرة التي تفقد جذورها، إلى جانب أمثلة أخرى كالتي جاءت على لسان مربية الجازية "الزواج جذع والعواطف أغصان!" (بن هدوقة. 1991، ص: 196)، وعلى لسان الجازية "الملح ما يدود" (بن هدوقة. 1991، ص: 196)، كناية عن التمسك بالأصل والإخلاص للطيب.

4.4 الأسطورة:

حكايات عريقة تفسر الكون والوجود والإنسان" وجسدت كل ما أراد الإنسان التعبير عنه في صور رمزية، دفعت بالأدباء على اختلاف اتجاهاتهم للعودة إليها" (بوسيف. 2017، ص: 48)، أبطالها آلهة أو أنصاف آلهة، وجودها في نص الرواية يربط الواقع المجتمعي الراهن بمعتقدات فكرية وطقوس ضاربة في جذور التاريخ ليدل على توارثها جيلا بعد جيل ورسوخها في أذهان ومخيلة وصدور الشعب، إن توظيفها يوفر روابط جمالية بين الذاكرة التراثية وقيم الحداثة، من هذه الأساطير :

• **الجازية:** الفتاة الخرافية التي "أشيعت حولها ألف خرافة، تفوق ما شاع من خرافات حول الجازية الهلالية..." (بن هدوقة. 1991، ص: 24)، نجدها منذ العتبة الأولى للنص(العنوان) تتناص مع جازية السيرة الهلالية فهي غير مفصولة عن الجذور العربية التراثية، ميزتها الذكاء والفطنة والجمال كالجازية الهلالية التي أحبها بن عمها دياب وجازية الدراويش أحبها الطيب "كل الناس يحلمون بها، لكنهم يرهبونها، إنها ابنة الشهيد الذي قتل بألف بندقية" (بن هدوقة. 1991، ص: 23)، فهي جزائر الثورة ابنة الشهداء الأبطال .

• **والد الجازية:** السعيد "رفاقه قالوا، قتل بألف بندقية!" (بن هدوقة. 1991، ص: 23)، اسمه رمز السعادة والفرح لأن الشهيد في الموروث الديني يفرح عند لقاء ربه بما آتاه كما ورد ذلك في القرآن الكريم والشهداء لا يموتون بل هم أحياء عند الله تعالى، فهو يرمز لكل شهداء الجزائر الذين استبسلوا في الحرب ضد المستعمر ليذودوا عنها .

• **أسطورة إساف ونائلة:** مستقاة من التراث العربي القديم عن محبين ارتكبا المعصية في محيط الكعبة فمسخا حجارة وصار العرب يعبدونها في وثنيتهم "جرها الأحمر إلى الرحبة وسط الدراويش. لم يتمكن من رؤية وجهها. هم بنزع اللثام عن وجهها، لكنها منعته! قدم لها منجلا فلعقته! راقصها فراقصته!" (بن هدوقة. 1991، ص: 83)، استدعاها الكاتب ليحذر من وقوع الطالب الأحمر في خطأ مع

الجازية في محيط جامع السبعة لأن ذلك سيعود بالضرر عليهما كليهما فكل علاقة خارج إطار الزواج تعد خطيئة، خاصة وأنه مكان مقدس للعبادة .

• **أضرحة الأولياء السبعة:** "كانت أساطير الدشرة تتمثل في ((السبعة)) والدراويش والصفصاف. ثم تخرج الجازية فجأة من الطفولة لتصبح الأسطورة–الحلم!" (بن هدوقة. 1991، ص: 23)، الرقم سبعة عند الجزائريين لديه مكانة خاصة فهم يعتقدون أنه مبارك، أما الأولياء فتنسب إليهم الكرامات والمعجزات ويؤمن سكان الدشرة بقدراتهم الخارقة ويطلبون رضاهم ويتجنبون سخطهم، يقيمون لاسترضائهم احتفالات شعبية في محيط مسجد السبعة فهو معلم ديني وثقافي وأسطوري للصلاة ومزار لأداء الطقوس والتبرك.

5.4. الحكاية

أحداث قصصية مأخوذة من الواقع مضافا إليها السمة التخييلية، تختلف روايتها من شخص لآخر تشمل تأتي قالب فني حكائي مشوق لها تأثير نفسي واجتماعي وثقافي، والجازية حكاية عربية مستمد من التراث الحكائي العربي ممثلا في سيرة بني هلال الذين سافروا نحو الشمال الإفريقي.

6.4 المعتقد الشعبي:

أفكار انفعل معها وجدان الشعب وانتشرت وآمن بها إيمانا مطلقا حتى سيطرت على العقول تمثل شكلا من أشكال التعبير الجماعي عن الخبرة الدينية تحيطها القداسة تترجمها صلوات تقام وتراتيل تتلى وطقوس تؤدى ممارسة كالزردة ورقص الحضرة وزيارة الأضرحة للتبرك والشفاء وإكرامهم، يقول الكاتب واصفا أحد المشاهد التي تجسد ذلك "دوت البنادير وعلا صوت الزرنة وصيحات الدراويش، في ألحان تمهيدية...ثم جيء بصحفة الدم إلى أحد الدراويش ((ليقرأها))...يقرأ المستقبل في دم الثور المجمد! وضع الصحفة في كفه ودار بها في الساحة كما يدور المهرجون بالأسواق. يقف لحظة، يتأمل الصحفة ثم يستأنف دورانه، فعل ذلك سبع مرات في ساحة الجامع، على عدد الأولياء والأيام" (بن هدوقة. 1991، ص: 78).

7. خاتمة :

خلاصة القول هي أن الثقافة الشعبية استرعت عناية الروائي الجزائري من باب المسؤولية الفنية؛ كونه معنيا بتقديم بلده في صورة المشهد الثقافي المعروف بحركيته داخل الوطن وخارجه إلى جانب غيره من الفنانين (رسامين، نحاتين، حرفيين...) لإيجاد موطئ قدم بين الثقافات العالمية المتزاحمة في عصر التطور التكنولوجي من أجل إثبات الذات الجزائرية وعراقة الوجود الحضاري، وخلق ثقافة مستقلة تجد لها جذورا في الماضي ومغايرة للآخر الأجنبي وبالتالي يجد نفسه محاميا مدافعا عن تراث وطنه، وعلى قدر براعته في الإبداع تأتي النتائج بثمارها. ويمكن حصر النتائج التي توصلنا إليها فيما يلي:

•الرواية تسهم في حفظ هوية وخصوصية المجتمع الجزائري من الاندثار بطابعه الخاص المبني على قيم مشتركه دينية وتاريخية واجتماعية ... يبدو ذلك من خلال صيغ متنوعة من الثقافة الشعبية المبثوثة في ثنايا السطور تنطق بأصالة المنشأ وحسن المنطق ونبل المقصد .

• هذه الصيغ مستمدة من التاريخ والبيئة الطبيعية والمعتقد الشعبي والذاكرة الجمعية كمرجعيات فكرية هامة تنوعت بين: الأمثال والأساطير والحكايات والمعتقدات الدينية والممارسات الطقوسية والتراث العربي والإسلامي وأمجاد الثورة وبطولات الثوار وأبناء الوطن بمختلف إيديولوجياتهم .

• هي رواية تشير إلى الجمع بين الأصالة التي تسعى إلى الحفاظ على الهوية المحلية والاعتزاز بالمنجز الحضاري للشعب الجزائري وبين المعاصرة التي تسعى إلى عالمية الفن والتطلع نحو التجديد والإبداع، فالعودة للبحث عن الذات يكون من خلال إيجاد روابط مشتركة مع الذاكرة الجماعية التراثية وإلا فإن مصير الجميع سيكون الهلاك .

• الخوض في التجريب سمة مميزة للأعمال الروائية المعاصرة ورواية الجازية والدراويش حررت الكاتب من قيود الموضوع الروائي لتحديث الشكل الروائي وتلوينه بالتراث بما يضمن استمراريته وملاءمته مع روح العصر وهي تشير إلى دلالات الانتماء الجغرافي والتاريخي والحضاري، هي فعلا رواية تراثية بامتياز تستحق الكثير من الدراسة والتحليل .

• برزت الرواية الجزائرية كنموذج سردي يبحث عن الخصوصية والتميز يعنى بالمجتمع ويعكس أمور حياته ويؤسس لبناء الذات بكل مقوماتها الفكرية والفنية والأدبية وقامت بتحديثات على بنيتها السردية لتتناغم مع متطلبات العصر وتتلاءم مع ظروف العيش المحلية من خلال من إثرائها الصيغ الثقافية الشعبية الجزائرية ذات التلوينات المختلفة متجاوزة بذلك الأطر التقليدية المعتادة لتقدم الأنموذج الروائي الجزائري المتفرد بامتياز .

• الجازية عمل فني تغلب عليه الروح الشعبية تنقل عمق القرية بكل عناصر الشعبوية فيها بثقافتها وطقوسها ومعتقداتها ومختلف شرائحها ومواضيعها التراثية وأمجاد الثورة وصدى العروبة ورسوخ الإسلام وتعاقب الحضارات، استلهمت من الأدب الشعبي فنوعت لغتها وأساليبها وطرق سردها ما أكسبها حيوية وشعرية لم يسع مجال البحث للحديث عن كل تفاصيلها برعت في تصوير الجزائر من كل النوحي وحوت الشعب بكل توجهاته.

• حينما تضئ الرواية جوانب ثقافية من تراث الشعوب وحياتها تتحول إلى وثيقة أنثروبولوجية وتصبح مادة للبحث عن الأساطير والعادات والتقاليد والطقوس، وبالتالي فإن القراءة الأنثروبولوجية للرواية تبرز جماليتها وإبداعها.

. قائمة المراجع:

- العربي، عبد القادر. (2021)، صراع الهوية وإشكالية الأنا والآخر في رواية "منافسة في باريس لنهاد رضا"، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية اللغوية، المجلد4، العدد3.
- أوجيه، مارك. كولاين، جان بول. (2008)، الأنثربولوجيا(ط1)، تر: كتورة، جورج، لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.
- بن حرز الله، مراد، (2017) واقع الأنثروبولوجيا الدينية في الوطن العربي، مجلة التغير الاجتماعي والعلاقات العامة في الجزائر، المجلد2، العدد4.
- بن عيسى، مهدية. (2015)، وهم الغرب وجذور الأنثروبولوجيا الإسلامية، مجلة أنثروبولوجية الأديان، المجلد11، العدد1.
- بن هدوقة، عبد الحميد. (1991)، الجازية والدراويش(رواية)، (ط2)، الجزائر: دار الآداب.
- بوسيف، مريم. (2017)، توظيف الأسطورة في رواية الجازية والدراويش لعبد الحميد بن هدوقة، مجلة الفضاء المغاربي، المجلد1، العدد6.

- بيلتو، بيرتي. (2010)، دراسة الأنثروبولوجيا المفهوم والتاريخ (ط1)، تر: سعد الدين، كاظم. العراق: منشورات بيت الحكمة العراقي.
- ثقاية، الصديق. (2016)، الأنثروبولوجيا في العالم العربي –حالتا مصر والجزائر–، مجلة التغير الاجتماعي، المجلد1، العدد3.
- جوادات، محمد. (2015) الواقعي والأسطوري في الثقافة الشعبية مقاربة أنثربولوجية ثقافية من جنوب المغرب، مجلة الثقافة الشعبية، العدد31.
- سعيدي، محمد. (2015)، الأنثروبولوجيا والتراث الشعبي في الجزائر: تاريخ ومسارات، مجلة السفير العربي، العدد171.
- فهيم، حسين. (1986)، قصة الأنثروبولوجيا (فصول في تاريخ علم الإنسان)، الكويت: منشورات عالم المعرفة.
- قريطم، عبير. (2010)، الأنثروبولوجيا والفنون التشكيلية الشعبية، مصر: المجلس الأعلى للثقافة.
- مجمع اللغة العربية. (1994)، المعجم الوجيز، مصر: طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم المصرية.
- نجم، راشد. (2021)، ثقافة التراث في دول الخليج العربي بين استدعاءات الذاكرة وضرورات المعاصرة، مجلة الثقافة الشعبية، العدد52.